المبحث السابع

منشأ الفكر الإسلامي

1

لتحديد نشأة الفكر الإسلامي تنبغي معرفة السياق التاريخي الذي نشأ فيه هذا الفكر أولا، أي طبيعة المكونات المادية والعقلية للمجتمع الذي نشأ فيه هذا الفكر، والمشكلات الأساسية التي كان يعنى بها، والموجهات المادية والروحية التي كانت تحدد له مسيرهُ داخل التاريخ.

والسياق التاريخي لم يكن سوى مجرى التاريخ العام الذي عرفته الجزيرة العربية ومَنْ حولها من الأمم المحيطة بها والتفاعلات القائمة بين مجتمعاتها، وبين المجتمع العربي الجاهلي. وقد تحدثنا في مبحث سابق عن العصر الجاهلي كنهاية وبداية، ألممنا بالمناخ الفكري العام للعصر الجاهلي الأخير، الذي ظهرت فيه البعثة المحمدية. فقلنا حينئذ إن أحوال العرب في العصر الجاهلي كانت قبيل ظهور الاسلام تؤذن بنهاية عهد وبداية عهد آخر، بدليل أن النخبة المثقفة من الجاهليين كانت تتطلع إلى مستقبل يغاير الحاضر الممزق المتناحر، سواء في المجال الاجتماعي أو الفكري والعقدي. وتحدثنا بتفصيل عن هذين المجالين، وذكرنا الأمثلة التي كانت تشير إلى التطلع إلى الوحدة، وحدة الجماعة أو وحدة العقيدة. وتطلع النفوس الواعية إلى مخلص من هذا التمزق والتعدد العقائدي الذي يدور يومئذ بالناس في حلقة مفرغة ويُسخرهم لكهنوت أو أرباب متسلطين عليهم.

وجاء الحَدَث القرآني الذي فصلنا حوله الكلام في مبحث آخر،

وبذلك جمعنا في سياق تحديد مكونات الفكر الاسلامي بين التاريخ والميتاريخ أي بين الفعل الانساني والوحي الرباني، وهي الثنائية التي اعتبرناها مكونة للفكر الاسلامي. والحدث القرآني هو الذي حرك ذلك المجتمع الجاهلي، وخلخل كيانه، وجعله يضطرب اضطرابا عنيفا، إذ استقطب فيه كل فئاته حول اتجاهين كبيرين متصارعين، وهما **اتجاه الاسلام** والدعوة إلى عبادة الله الواحد، ونبذ عبادة الأسلاف وتقليد الآباء، وإعادة بناء المجتمع على أسس جديدة ومنظور كوني جديد من ناحية، **واتجاه المحافظة على الأوضاع الوثنية** ومصالح الطبقات المستغلة من ناحية أخرى.

وسرعان ما انهار البناء الاجتماعي الجاهلي المتداعي أمام قوة الاسلام الثورية بقيمها الروحية الخلاقة المحررة للفكر والعقل والقلب من كل تبعية وتسخير لغير خالق الكون.

ولم تكن عقيدة الاسلام عقيدة قومية، بل كانت عقيدة عالمية كونية. لذلك اتجهت إلى نشر مبادئها عبر الأقطار والبلاد المجاورة، فكانت السرعة التي تحقق بها نشر الاسلام في بلاد الشام وفارس ومصر وإفريقية وما وراء بلاد فارس كالهند وخراسان دليلا على ما كان يسود المجتمعات المفتوحة من ضعف وتمزق، لم تَقْوَ معه حتى على الدفاع عن نفسها أمام جيوش قليلة العدد، بل بدائية بالقياس إلى الجيوش النظامية التي واجهتها. وهكذا يمكننا أن نحصر عوامل نشأة الفكر الاسلامي في ثلاثة على الأقل :

1 ــ عامل الحدث القرآني، وهو الوحي الالهي المتمثل في القرآن، وما كان يحمله من حقائق وتوجيهات وقيم ومناهج، يمكن اعتبارها ثورة على كل ما كان معروفا من قبل.

2 ــ عامل الواقع التاريخي والاجتماعي الذي كان يسود البيئة العامة التي ظهر فيها الفكر الاسلامي الأول عصر الرسالة.

Scanned with CamScanner

3 ــ عامل الفتوحات الاسلامية، وما أتاحته للمسلمين من التواصل مع الثقافات والعقليات الأجنبية، وحققته من تمازج وتفاعل مع تلك الثقافات.

وبذلك يكون الفكر الاسلامي قد نشأ من ثنائية يتمثل زوجها الأول في القرآن. ويتمثل الثاني في الواقع الاجتماعي المتفاعل المتطور مع الضروريات الحياتية من ناحية، ومع مبادىء الاسلام من ناحية أخرى.

وعلينا أن نحلل كل واحد من هذين العاملين، فنوضح فعل الحدث القرآني وتغييرهُ للعقلية العامة لدى المؤمنين به من ناحية، ثم نوضح فعل الأحداث السياسية والاجتماعية في بلورة الفكر الاسلامي وحفر مجاريه الكبرى.

2

إن الذين حددوا بداية ظهور الفكر الاسلامي بنشأة علم الكلام في العهد الأموي الأخير، غفلوا عند الانطلاق في تأريخهم لهذا الفكر أو لنشأة هذا الفكر عن فترة أساسية تعتبر في نظرنا هي البداية الحقيقية لمنشأ الفكر الاسلامي، وهي البداية التي انطلق منها هذا الفكر يرتاد آفاق النظر والاستدلال وتنظيم المعرفة. ونقصد بتلك الفترة الأساسية العصر النبوي، عصر نزول الوحي وتبليغ الرسالة.

صحيح أن الفكر الاسلامي خلال العصر النبوي كان فكرا (منفعلا) أكثر منه فكرا (فاعلا). لأن العهد كان عهد تلقي (الوحي) وتلقي (السنة) النبوية المفسرة لمجمل ذلك الوحي في مجال التشريع والأحكام والعبادات. فكان أقصى ما يسعى إليه الفكر حينئذ هو الإنصات لخطاب الله، وتأمله واستشعار آياته الدالة على حكمته وجلاله، أو تتبع ما يتلفظ به النبي ﷺ من حديث توجيهي وبيان لدين الله وحقائقه. ولكن هذا التلقي للوحي وللسنة كان يستوجب إلى جانب تفتح القلب فكراً ثاقبا

يحضرون مجالسه، فيأمرهم بالتبليغ ويطالبهم بالفقه للأحكام، ولكنه لم يكن يستطيع تحقيق التسوية بينهم في فهم ما يتلقونه عنه، مثلما يستطيع التسوية بينهم في التبليغ، فكان بعض الصحابة يسمع من الرسول ﷺ فلا يفهم إلا الظاهر الجلي، وكان البعض يسمع ما يسمع فيدرك أكثر من ذلك الظاهر الجلي، ويستنبط منه، وقد صور الرسول ﷺ ذلك أحسن تصوير في الحديث الذي ترجمه البخاري بباب (فضل من علم وعلّم) قال : «مثل ما بَعَثني الله به من الهُدَى والعلم كمثل الغَيث الكثير أصاب أرضا منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وزرعوا. وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مَثَل مَنْ فَقِه في دِين الله ونفعه ما بعثني الله به، فَعَلِم وعَلَّم. ومَثَل من لم يرفع به ذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».(5)

هذا الحديث واضح الدلالة في الدعوة إلى التفقه في الدين ونشر العلم، وواضح في الدلالة على الاختلاف بين الناس في الإدراك والفهم والانتفاع بالعلم.

وواضح في الدلالة على أفضلية من عَلِمَ وعَلَّم وانتفع ونفع، وجعل الهُدَى والعلم يمتدان ويستمران في نفوس الأجيال على مر الزمان.

وفي هذا السياق أيضا نُورد الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد، وهو قوله ﷺ : «نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره فإن رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(6)

ومن خلال هذا التعليم النبوي والهدي القرآني ظهرت الحركة الفكرية

---

(5) المرجع السابق. ص : 143/1

(6) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (103/5) عن (الأحاديث الصحيحة) للألباني 689/1، وأخرجه الدارمي وابن حيان وابن عبد البر.

Scanned with CamScanner

يحضرون مجالسه، فيأمرهم بالتبليغ ويطالبهم بالفقه للاحكام، ولكنه لم يكن يستطيع تحقيق التسوية بينهم في فهم ما يتلقونه عنه، مثلما يستطيع التسوية بينهم في التبليغ، فكان بعض الصحابة يسمع من الرسول ﷺ فلا يفهم إلا الظاهر الجلي، وكان البعض يسمع ما يسمع فيدرك أكثر من ذلك الظاهر الجلي، ويستنبط منه، وقد صور الرسول ﷺ ذلك أحسن تصوير في الحديث الذي ترجمه البخاري بباب (فضل من علم وعلّم) قال : «مثل ما بَعَثني الله به من الهُدَى والعلم كمثل الغَيث الكثير أصاب أرضا منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وزرعوا. وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مَثَل مَنْ فَقِه في دِين الله ونفعه ما بعثني الله به، فَعَلِم وعَلَّم. ومَثَل من لم يرفع به ذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».(5)

هذا الحديث واضح الدلالة في الدعوة إلى التفقه في الدين ونشر العلم، وواضح في الدلالة على الاختلاف بين الناس في الإدراك والفهم والانتفاع بالعلم.

وواضح في الدلالة على أفضلية من عَلِمَ وعَلَّم وانتفع ونفع، وجعل الهُدَى والعلم يمتدان ويستمران في نفوس الأجيال على مر الزمان.

وفي هذا السياق أيضا نُورد الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد، وهو قوله ﷺ : «نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره فإن رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(6)

ومن خلال هذا التعليم النبوي والهدي القرآني ظهرت الحركة الفكرية

(5) المرجع السابق. ص : 143/1

(6) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (103/5) عن (الأحاديث الصحيحة) للألباني 689/1، وأخرجه الدارمي وابن حيان وابن عبد البر.

Scanned with CamScanner

الأولى حول القرآن والسنة حفظا ورواية ومدارسة وتفقها من لدن الصحابة. وظهر بين هؤلاء الصحابة فقهاء ومفتون وقراء، كانوا الخلية الأولى التي نشأ فيها الفكر الاسلامي في العصر النبوي.

قال مسروق : جَالَسْت أصحاب رسول الله ﷺ، فكانوا كالإخاذ؛ الاخاذة تروي الراكب، والإخاذة تروي الراكبين، والاخاذة تروي العشرة، والإخاذة لو نزل بها أهل الأرض لأصدرتهم»[7]

هذا ماكان من شأن الصحابة في تلقي السنة النبوية، أما ما كان شأنهم من تلقي القرآن فأمر نستطيع تمثله بغير أخبار أو روايات.

فالقرآن كما يتضح للناظر فيه كان يخاطب العقل بكل معانيه ودرجاته ومستوياته عند المخاطبين. ويطالبه بالتفكير والتدبر واقتفاء الحوادث التاريخية بالملاحظة والمقارنة والاعتبار. واستقراء الظواهر الطبيعية، والغوص في أعماق النفس لتأمل خواطرها وهواجسها وتحليل أحوالها ونزواتها.

والذين استجابوا للخطاب الالهي، وتحركوا مع الدعوة الاسلامية فآمنوا وصدقوا وانخرطوا في حركة الجهاد من أجل تغيير أوضاع المجتمع الجاهلي كانوا قد فكروا في كل شيء قبل أن يقدموا على ما أقدموا عليه. وكانوا قد فكروا وشكّوا وارتابوا ثم فكروا وقارنوا وبحثوا. ثم استيقنوا فآمنوا والتزموا، ومضوا في سبيل إعلاء كلمة الحق على بينة من أمرهم، ويقين تام من صحة ما آمنوا به. فالتاريخ الاسلامي الذي غير الواقع الإنساني يومئذ خلال فترة من الزمان لم ينشئه غير رجال مؤمنين أقوياء العقيدة، ملتزمين بتعاليم دينهم التزاما دقيقا، دعاة إلى دين الله عن بصيرة ويقين وحجة واستدلال.

---

(7) أنظر أعلام الموقعين لابن القيم 16/1.

Scanned with CamScanner

وكان من وراء هذه الحركة المتنامية باستمرار فكر إسلامي واع يخوض المعركة ضد كل القوى الجاهلية السياسية والدينية والثقافية التي كانت تواجهه. وكان هذا الفكر المخاطب يومئذ بالقرآن مطالبا بكل ضروب التفكير والتأمل والإنجاز للتعاليم التي يتلقاها من أمر ونهي وترغيب وترهيب.

وقد طالب القرآن بالتفكير والتدبر على النحو الذي أوضحناه فقال تعالى : ﴿قل إنما أعظكم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا، ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾[8] ولم يكن التفكير الذي دعا إليه القرآن سوى الاستدلال بالأدلة المنصوبة أمام العقل لاستنتاج مايمكن استنتاجه منها. إلا أن القرآن لم يكتف بالإشارة إلى ضرورة الاستدلال وإنما عزز دعوته بتحديد منهج الاستدلال.

والواقع أن المنهج الاستدلالي واضح في القرآن حين خاطب العقل واعتد به، وذلك من خلال مظهرين :

أولهما : كونه اعتبر العقل وحده المخاطب بالدين، على أساس الاستدلال وتقديم الحجة والبرهان، محددا مسؤولية الإنسان في اكتشاف الحقيقة بنفسه، ومسؤوليته على مصيره.

والثاني : كونه تضمن بالفعل حوارا مفتوحا بينه وبين جميع أصحاب العقائد السائدة يومئذ في البيئة العربية، ولاسيما اليهود والنصارى. وجادل أهل كل عقيدة بالحجة، وبين مافيها من ضلال وافتراء أو دعوى بغير برهان.

أما المظهر الأول : وهو مخاطبته للعقل فقد لاحظ العقاد مثلا[9] أن

(8) سورة سبأ، الآية ــ 45.

(9) أنظر (كتابه التفكير فريضة إسلامية) دار العلم ــ القاهرة.

Scanned with CamScanner

القرآن تضمن دعوة صريحة متكررة إلى استخدام الفكر وإلى احترام العقل والتنويه بشأنه. وأنه لم يأت التأكيد أو التكرار لذكر إعمال العقل بمعنى واحد من معانيه. وإنما أتت الإشارة إلى كل أسماء العقل الموحية بفعالياته المختلفة ووظائفه المتعددة، مع تعمد التفرقة بين تلك الخصائص أو الفعاليات والوظائف عند خطاب العقل.

ـ فهناك العقل بمعنى الوازع الأخلاقي (وهو العقل الذي يمنع صاحبه من إتيان المنكر) باستيحاء المعنى المادي للفظ العقل، وهو المنع من الانطلاق مع الهوى) فقال تعالى: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾(10) وقال: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب، أفلا تعقلون﴾(11).

ـ وهناك العقل بمعنى الإدراك والوعي، وعندئذ يصبح خطاب اللب، أو خطاب ذوي الألباب، بمعنى خطاب العقل، أي خطاب العقل المدرك بعمق ونفاذ. فيقول تعالى: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب، ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾(12).

وقال: «﴿يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾(13).

ـ وهناك خطاب العقل بمعنى الفكر المستنبط الذي ينهض بالملاحظة والموازنة والاستدلال. ويأتي الخطاب للعقل بهذا المعنى بلفظ التفكر والبصر والفقه والاعتبار والعلم. فيقول: ﴿أو لم يتفكروا في أنفسهم

(10) سورة الأنعام، الآية 155.
(11) سورة البقرة، الآية 44
(12) سورة المائدة، الآية 100.
(13) سورة البقرة، الآية 269.

Scanned with CamScanner

ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾[14].

ويقول : ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز لنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم، وأنفسهم أفلا يبصرون﴾.[15]. ويقول : ﴿أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾[16] و يقول : ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المومنين. فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾[17]. ويقول : ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾[18]

ولاحظ العقاد أيضا أن القرآن حين أنكر الكهانة والطقوس الهيكلية والوساطة بين الخالق والمخلوق واكتفى بإناطة مسؤولية كل إنسان بذاته، ومحاسبة النفس بجريرتها لاغير فقد عول على العقل، وأخذ بمنطق المسؤولية.

ونلاحظ أيضا بالإضافة إلى هذه العوامل التي حررت العقل الانساني من خلال الخطاب القرآني أن الاسلام حين ختم برسالة محمد سلسلة الرسالات السماوية، وجعل الخطاب القرآني خطابا نهائيا للانسان وأعلن ختم النبوة، فقد ترتب على ذلك ــ كما قال محمد إقبال ــ ترشيد الانسان، أي جعله الانسان يدخل مرحلة جديدة، يعول فيها على عقله في كل ما يستجد من حاجاته، وعلى تقويم سلوكه وانحرافاته وضلاله، متى دعت الظروف إلى ذلك. فلن يبقى الانسان مقودا بيد الغيب، أو بمنهج الوحي

---

(14) سورة الروم، الآية 8.
(15) سورة السجدة، الآية 27.
(16) سورة الأنعام، الآية 65.
(17) سورة الحشر، الآية 2.
(18) سورة الأنعام، الآية 97.

Scanned with CamScanner

والالهام إلى مصيره، وإنما عليه أن يستثمر طاقته العقلية في سبيل التقدم إلى حيث يستطيع أن يبلغ من الكمال.

ولم يكتف القرآن بذلك، وإنما نظر في الموانع التي تعطل وظائف العقل فندد بها وتشدد في انتقادها وإنكارها وطالب الانسان بألا يضعف بعقله أمام تأثيرها، وهي موانع رئيسية أربعة :

1 ــ التقليد الأعمى.

2 ــ تقديس السلف.

3 ــ الخوف أو الخنوع للسلطة الجائرة.

4 ــ الكبرياء وشهوة النفس والغرور والمصالح الآنية.

فقال تعالى : ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾(19).

وقال : ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾(20).

ولذلك أنكر الاسلام الكهانة والسيطرة الروحية على العقل من قبل رجال الدين الذين يتحولون في بعض الأحيان إلى قوة معادية للفكر الحر المستنير، أو إلى طبقة مستغلة. فقال تعالى : ﴿ياأيها الذين آمنوا إن كثيرا مِنَ الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾(21).

---

(19) سورة الزخرف، الآيات 24/23.

(20) سورة التوبة، الآية 20

(21) سورة النساء، الآية 97.

Scanned with CamScanner

كما أنكر الاسلام الخنوع على الخانعين، والضعف على الضعفاء أمام الجور والسلطان الغاشم. وأمر بتغيير المنكر. وطالب بأن يكون هناك على الأقل حد أدنى للتغيير، ولَوْ بالتحول عن البلاد التي لا مجال فيها لخوض النضال في سبيل الحق فقال : ﴿قالوا فيم كنتم. قالوا كنا مستضعفين في الأرض. قالوا أو لم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾(22).

3

وإذا كان القرآن قد دعا إلى تحرير العقل، والاعتداد به، فإنه لم يكتف بذلك، وإنما مضى نحو تأسيس نظرة عقلانية أو منهجية للعالم المحيط بالانسان، لتحقيق هدفين :

1 ــ تكوين معرفة صحيحة عن عالم المادة والحياة.

2 ــ تكوين عقيدة مرتكزة على هذه المعرفة.

فقد تناول القرآن ــ وإن بطريقة غير مباشرة، أثناء عرض توجيهه للإنسان إلى آيات الله الدالة على ألوهيته وربوبيته ــ منهج المعرفة الانسانية وموضوعاتها، فبين بإجمال ما يمكن أن تستخلص منه المسائل التالية :

أولا : موضوعات المعرفة الممكنة هي مظاهر الطبيعة والنفس والاجتماع الإنساني. أي موضوعات العلوم المادية والإنسانية التي يشتغل بها العلم الانساني ويكشف عن طريقها قوانين المادة وأسرار الحياة.

والملاحظ أن القرآن يستعمل بدقة لفظ (الخَلق) في المواطن التي يريد فيها توجيه الفكر إلى (الطبيعة) و (التكوين الطبيعي) للظاهرة، وكثيرا ما يطالب العقل بملاحظة (الكيف) أي كيفية وقوع الأشياء وكيفية

(22) سورة البقرة، الآية 64.

Scanned with CamScanner

الحدوث وملاحظة (الاختلاف) أي التغيرات المتعاقبة. وهذه بعض الآيات ذات الدلالة البيِّنة في هذا السياق :

3 — ﴿إن في **خلق** السماوات والأرض **واختلاف** الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾(23).

﴿أو لم يروا **كيف** يبدىء الله الخلق ثم يعيده. إن ذلك على الله يسير. قل سيروا في الأرض فانظروا **كيف** بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة. إن الله على كل شيء قدير﴾.

﴿ألم ترك إلى ربك **كيف** مد الظل، ولو شاء لجعله سَاكنا. ثم جعلنا الشمس عليه دليلا. ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا﴾(24).

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم **كيف** بنيناها وزيناها ومالها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾(25).

ثانيا : وجه القرآن الفكر الإنساني المتأمل إلى أن الخَلْق (الطبيعة) جاء بقصد، وأنه ما من شيء يحدث إلا وهو في نظام موجه لأهداف عليا. وبذلك ألح على (غائية الحياة) المادية ذاتها باعتبارها نظاما كونيا موجها لغاية معلومة. فلا عبثية في الحياة، ولا تفاوت في الخلق، ولا شيء يحدث بغير حق، ولفظ (الحق) نفسه يتكرر في القرآن في سياقات متعددة، فيفيد أحيانا **الحكمة**، ويفيد أحيانا **قانون الطبيعة**، ويفيد أحيانا **الغاية** من الحياة أو الوجود.

---

(23) سورة العنكبوت، الآيات 20/19.

(24) سورة الفرقان، الآية 45.

(25) سورة (ق)، الآيات 8/7/6.

Scanned with CamScanner

ويربط القرآن بين العديد من الظواهر الطبيعية وبين انتفاع الانسان منها. أو بينها وبين الانسان باعتبارها تسخيرا من الله للانسان. وهذا مجال مفتوح للعديد من المباحث والتأملات والتحليلات.

ويكفي أن نعلم ما ينطوي عليه التناسب بين (العَيْن المُبصرة) لدى الانسان، وبين عَوامِل الابصار، الخارجية التي تهيء للعين أن تبصر في نظام، وكذلك يمكن القول عن حاسة السمع، وظاهرة السمع، ومالها من عوامل خارجية متناسبة مع الآلة المهيأة للسمع.

وهكذا يلفت القرآن نظرنا إلى أن الانسان تلتقي فيه ظواهر الكون جميعها وتتكامل معه وتدله على حقيقة تكوينه.

فالحياة يطبعها التكامل بين ظواهرها. ويوجهها (الحق) الذي أبدعها والحكمة التي حددت سيرها. وهذه هي الحتمية التي يعبر عنها القرآن بالسنن الكونية.

ويستعمل القرآن للتعبير عن انضباط مقادير الأشياء المتكاملة فيما بينها، فلا يجور فيها عنصر على عنصر. ومن ذلك هذه الأمثلة : ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار﴾(26).

﴿الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾(27).

﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد. وكل شيء عنده بمقدار﴾(28).

---

(26) سورة يس، الآيات 40/39.

(27) سورة الفرقان، الآية 2.

(28) سورة الرعد، الآية 8.

Scanned with CamScanner

ويترتب على قيام الكون كله على تقدير دقيق، هو صورة الكمال الذي نفتتن به أو نعجب أو نندهش أو ننبهر به في مجال الكشوفات العلمية ومعرفة أسرار الكون، أن الكون كله وحدة متكاملة داخل نظام، أو نظام واحد داخل بنية شاملة لا تفاوت فيها، إذ يستحيل العثور على شيء غير متكامل مع ذلك النظام.

﴿ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير﴾[29].

ثالثا : انطلق القرآن بعقل الإنسان من الوقائع المادية لينتهي به إلى الاستدلال على وجود الله وعظمته. وهكذا تحدث القرآن عن المألوف المعتاد مما نراه كل يوم من أرض وسماء وليل ونهار وجبال وأنهار. ونجوم وأضواء، وتغيرات متعاقبة، في الطبيعة الخارجية. والنفس الانسانية. ولكن ما من شيء لفت نظرنا إليه إلا عَرَضَه في حال تجدده وتغيره أو حال دِقته ونظامه، أو حال تسخيره ونفعه، أو حال توازنه أو تنوعه أو بهجته أو جماله أو جلاله أو ما سوى ذلك، فكأنه يحثنا على استقراء مظاهره تلك، لأن وراء هذا الاستقراء قانون ذاته، ووراء الظاهرة وقانونها معا القوة المدبرة والحكمة القائمة.

وقد فجر القرآن في الوعي الانساني بشكل لم يسبق له مثيل الدهشة المقرونة بالإجلال لجمال الكون ونظامه وعظمته وهذه هي المرحلة العلمية التي يقف فيها العقل على حقائق هذا النظام بتفصيل حسب العلوم المختلفة، وقد حث عليها واعتبرها خطوة أولية للاستدلال على مبدع الكون.

---

(29) سورة الملك، الآيات 4/3.

Scanned with CamScanner

إن المعرفة أو العلم الطبيعي ليس غاية يقف عندها العقل. لأن العقل الذي يكتفي بأن يعرف كيف تتعاقب الظواهر وتتغير وتتوالد الأجناس وتتفاعل العناصر، وتتحول المادة، ساعيا إلى استغلال ذلك في حياته المادية عقل ناكصٌ عن المضيِّ في طريق الهداية إلى ما وراء الظواهر ذاتها. فربط الملاحظة للظواهر واستقراؤها بالاستدلال على نظام الكون خطوة نحو التوجه العقلاني والوجداني لعبادة خالق الكون والاستجابة لحكمته وهديه.

وأهم جانب يمليه القرآن على العقل إملاء لا هوادة فيه هو تلقينه منهج اكتشاف الحقيقة، أو اكتساب المعرفة بالكون. واكتشاف الحقيقة في المنهج القرآني مرتب على مقدمة أساسية أو حقيقة أولية هي اعتبار الحقيقة ملابسة للواقع، وليست مجردة عنه، ولا هي قبلية من قبليات الفكر. فالقرآن يدعو بصريح العبارة إلى استقراء الوقائع والأحداث وتتبع الحقائق الجزئية باعتبارها دالة على الكل، هادية إليه سواء في الطبيعة المادية أو في النفس أو في الاجتماع (التاريخ).

ـــ ان الحقيقة الالهية تكتشف من ظواهر الطبيعة الدالة بذاتها على النظام والانتظام. ولو أننا نظرنا إلى أي شيء منها بعين (العالِم) أو (الفيلسوف) تلك العين التي تعتبر كل شيء (غريبا) في هذا الكون، أي داعيا لاستغراب الفكر، و (جديدا) أي مبدعا على غير مثال سابق. و (متكاملا) مع غيره من المظاهر الكونية، أي بالعين التي لا يقتل الاعتياد للظواهر فضولها في أن تتساءل عن كل شيء، وكأنها تراه لأول مرة يَخرج إلى هذه الحياة، عين (نيوتن) التي تساءلت عن معنى سقوط التفاحة، أو عين (ابن الهيثم) التي تساءلت كيف نبصر المرئيات أو عين (طاليس) التي أدركت أننا لا نسبح في مياه النهر مرتين.

لو أننا نظرنا إلى الظواهر الكونية بهذه النظرة المتسائلة عن سر كل

Scanned with CamScanner

شيء وحقيقة كل شيء لكنا في طريق الاستقراء واكتشاف ما وراء التماثل بين الظواهر والترابط بين العلل والمعلولات والأسباب والمسببات والتزاوج والتضاد والتكامل والتعاقب نكتشف قوانين الكون الطبيعي.

والقرآن يكشف للعين والعقل معا تلك المظاهر التي اعتادها، فيعرضها عليهما عرضا مُثيرا للدهشة باعثا على التساؤل وكأنه يثير فينا بواعث الملاحظة العلمية. فيقول مثلا :

— ﴿وهو الذي مد الأرضَ وجعل فيها رواسي وأنهارا، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يُغشي الليلَ النهارَ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وفي الأرض قَطَع متجاورات وجنات من أعناب، وزرعٌ ونخيلٌ صنوان وغير صنوان تُسقَى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأُكل. إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾(30).

—﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون، وجعلنا لكم فيها معايش، ومن لستم له برازقين. وإن من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم، وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه. وما أنتم له بخازنين. وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون﴾(31)

وأما المظهر الثاني فقد وقف القرآن في مواطن كثيرة عند إيراد آراء الخصوم في الدعوة الاسلامية والرد عليها أو إيراد معتقدات أهل العقائد السائدة الفاسدة من نصارى ويهود ومجوس ودهرية وسواهم، ثم عقب عليها. معتمدا في ذلك أسلوب الحجة والبرهان. وقد توخى القرآن من وراء ذلك كله أن يجعل الأخذ بالعقيدة الاسلامية قائما على الاقتناع العميق وجدانيا وعقليا.

(30) سورة الرعد، الآيات 4/3.

(31) سورة الحجر، الآيات 23/22/21/20/19.

Scanned with CamScanner

وذلك لأن الارتباط بين حصول اليقين القلبي والاقناع العقلي هو أساس العقيدة. وهو ما أفاده المنهج القرآني من جملة خطابه للعقل والقلب معا. فالاستدلال (العقلي) كما قال ابن حزم هو الذي يفيد اليقين متى سلمت مقدماته وانتهت في نتائجها إلى الحس السليم، أو الضرورة المفيدة لليقين بخلاف الدليل (النقلي) فإنه لا يمكن أن يفيد اليقين وحده ولأنه ليس في الواقع سوى مصادرة منطقية.

وإذا علمنا بأن القرآن ينص بنفسه على كونه يشتمل على آيات محكمات وآيات متشابهات علمنا لماذا نشأ التأويل في القرآن. ولماذا جنح المفكرون من المسلمين إلى الاعتماد على الدليل العقلي في (أصول العقائد) بدل الدليل النقلي.

ولم نذهب بعيدا والمنهج القرآني نفسه مثال في هذا الباب، من حيث كونه قام أساسا على الجدل بالحجة وإقامة البرهان، واتباع العلم، واطراح التقليد، والمطالبة بالتعويل على العقل ودعم الاعتقاد بالدليل أو البرهان.

قال الإمام ابن حزم (م ـ 456) حين استوفى إيراد الآيات القرآنية التي تفيد دعوة القرآن إلى اصطناع الحجة دليلا على معرفة الحق، وإلى نبذ الهوى بغير علم، وإلى اعتبار إبراهيم الخليل نبي البرهان ورسول الحجة على الناس، فقال تعالى في شأنه :

﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾(32).

وقال تعالى : ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه، وهذا النبي والذين آمنوا. والله ولي المؤمنين﴾(33)

---

(32) سورة الأنعام، الآية 82.

(33) سورة آل عمران، الآية 68.

ولا غبط على الكفار والمبطلين أقوى من هتك أقوالهم بالحجة الصادعة. وقد تُهزم العساكر الكبار. والحجة الصحيحة لا تُغلب أبدا. فهي أدعى للحق وأنصر للدين من السلاح الشاكي، والأعداد الجمة[38].

وبهذا الوجه الذي يعرضه ابن حزم واضحا قويا دعا القرآن إلى تدبر آيات الله والتفكير في استنباط مظاهر إعجازه ودعم الإيمان بالحجة على إثبات الحق، وإقامة البرهان على فساد رأي المفسد وصلاح رأي المصلح وصحة عقيدة وفساد أخرى. امتثالا للعمل الإلهي ومنهجه. ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾[39].

ولاشك أن المقصود هو حجة العقل لاقوة السيف. وسطوع البرهان لافرض الرأي بالقوة. ولذلك قام الفكر الاسلامي بارتياد آفاق البحث وإقامة الحجة والبرهان على صحة العقيدة والنهج على سنة القرآن في الدعوة إلى الحق بالجدل والحجاج والمناظرة والإقناع.

4

وإذن، فكل ما يتصل بالحياة العقلية الجديدة التي وقفنا على معالمها كان مصدره القرآن. أو النص القرآني، وقد كان من الطبيعي أن يحمل النص كل هذه الثورة العقلية على كل أنساق التفكير القديم، فتنشأ حوله وحول السنة النبوية التي كانت بيانا له كل المناهج والعلوم التي انبثقت من التفاعل مع (النص) من منظورين اثنين على الأقل :

---

(38) أنظر الإحكام في أصول الأحكام لأبي محمد علي بن حزم الأندلسي. ط/ دار الآفاق الحديثة، ج 20/19/1.

(39) سورة الأنبياء، الآية 18.

Scanned with CamScanner

يقول أحمد أمين موضحا هذا العامل : «توفي رسول الله ﷺ ولم يتعد الاسلام جزيرة العرب، وكان قد بدأ بدعوة الأمم المجاورة ومناوشتها ثم تتابعت الفتوح بعد، ففتح العراق وكان يسكنه بعض قبائل عربية من ربيعة ومضر، وبعض الفرس — عدا سكان البلاد الأصليين — كان منهم نصارى ومنهم مزدكية وزرادشتية. وأنشأ العرب مدينتي البصرة والكوفة، أمر عمر ابن الخطاب بإنشائهما «لما رأى أن مناخ المدائن والقادسية لم يوافق مزاج العرب، فأمر أن يرتاد موضع لا يفصله عن جزيرة العرب بر ولا بحر»، وكان الغرض منهما أن يكونا معسكرين يشم العرب منهما هواء الصحراء، ويتجنبون بهما وخم المدن، فأنشئت البصرة نحو سنة 15 هـ والكوفة سنة 17 هـ (سنة 638 م).

وفتحت فارس، وكان يسكنها الفرس، وقليل من اليهود، وبعض الروم «الرومانيين» الذين أسروا في الحروب الفارسية الرومانية.

وفتح الشام، وكان — قديما — قد تداولت عليه الأمم المختلفة والمدنيات المختلفة من فينيقيين وأموريين وكنعانيين، وغزاه فراعنة مصر واليونان والرومان وعرب غسان، وأخيرا كان إقليما رومانيا يتثقف بثقافة الرومانيين ويتدين بالنصرانية دينهم، ففتحه الاسلام، وقد ورث كثيرا من مدنيات الأمم الغابرة.

«وكان يسكن هذه البلاد عند الفتح السوريون — أهل البلاد — والأرمن واليهود وبعض من (الروم) الرومان، وبعض قبائل عربية. وكان من أشهر هذه القبائل : غسان، ولخم، وجذام، وكلب، وقضاعة، وطائفة من تغلب. وكانوا في القسم الجنوبي من الشام أكثر منهم في القسم الشمالي، بحكم الجوار لبلادهم، وكان هؤلاء العرب يتكلمون لغة هي مزيج من الآرامية والعربية، وكانوا يعدون أنفسهم شاميين، لا تربطهم بعرب الحجاز إلا العلاقات التجارية، وقد وقفوا بجانب الرومان في محاربة

المسلمين عند الفتح»[40].

وفتحت مصر مهد المدنية القديمة، والوارثة لحضارة قدماء المصريين واليونان والرومان، وبها الإسكندرية مجمع المذاهب الفلسفية والطوائف الدينية، وملتقى الآراء الشرقية والغربية، وكان يسكنها المصريون ومزيج من أمم أخرى كاليهود والرومان. وفتحت بلاد المغرب من برقة وتونس والجزائر ومراكش إلى مضيق جبل طارق، وكانت كذلك في يد الرومان.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك فتحت السند وبخارى وخوارزم وسمرقند إلى كاشغر، وفتحت كذلك الأندلس.

ويلاحظ أحمد أمين بعد ذلك أن هذا الفتح عمل على إحداث عملية مزج قوية بين الأمة الفاتحة والأمم المفتوحة، مزجا في الدم وفي النظم الاجتماعية، وفي الآراء ومذاهب التفكير والاعتقاد.

وبعد أن يستعرض وجوه هذا الامتزاج والاختلاط يقول :

«الحق أن الامتزاج كان قويا شديدا، وأن الموالي وأشباههم كان لهم أثر في كل مرافق الحياة، وأنه كانت هناك حروب في المسائل الاجتماعية كالحروب البدنية بين الجنود، ولكن لم يعن المؤرخون بتفصيلها وهي أولى بالعناية، فقد كانت حرب بين الاسلام والديانات الأخرى، وكانت حرب بين اللغة العربية واللغات الأخرى، وكانت حرب بين الآمال العربية وآمال الأمم الأخرى، وكانت حرب بين النظم الاجتماعية العربية البسيطة، وبين النظم الاجتماعية الفارسية والرومية. ولئن كانت الحروب البدنية قد انتهت تقريبا بفتوح أبي بكر وعمر وعثمان، فإن الحروب الأخرى ظلت قائمة بعد ذلك طويلا وأصبحت المملكة الاسلامية مجالا فسيحا لهذه الحروب تتنازع فيها الآمال. ففرس يحنون إلى مملكتهم القديمة،

(40) انظر (فجر الإسلام) لأحمد أمين. ط/السادسة. 1950. ص 84 وما بعدها.

Scanned with CamScanner

ويعتقدون أنهم أرقى من العرب، وروم كذلك، والمغرب ومصر يودون الاستقلال. كما أن النظم السياسية فيها متضاربة : فرس لهم نظام خاص، وروم لهم نظام مغاير، وقانون روماني كان يسود المستعمرات الرومانية، وقانون فارسي كان يسود المملكة الفارسية... وفرس مجوس ظلوا مجوسا، وفرس أسلموا، وروم نصارى، وروم أسلموا، ومصريون نصارى، ومصريون أسلموا، ويهود في هذه البلاد ظلوا يهودا، ويهود أسلموا، ولغة عربية وفارسية وقبطية ويونانية وعبرية ــ كل هذه النزعات واللهجات كانت في حروب مستمرة، وكانت المملكة الاسلامية كلها هي موطن القتال، و لم يصلنا مع الأسف، من وقائعها إلا النزر اليسير، فلم تعد الأمة الاسلامية أمة عربية، لغتها واحدة، ودينها واحداً، كما كان الشأن في عهد الرسول ﷺ، بل كانت الأمة الاسلامية جملة أمم، وجملة نزعات، وجملة لغات تتحارب. وكانت الحرب سجالا، فقد ينتصر الفرس، وقد ينتصر العرب، وقد ينتصر الروم».

والحق أن العرب وإن انخذلوا في النظم السياسية والاجتماعية وما إليها من فلسفة وعلوم ونحو ذلك، فقد انتصروا في شيئين عظيمين : اللغة والدين، فأما لغتهم فقد سادت هده الممالك جميعها، وانهزمت أمامها اللغات الأصلية للبلاد، وصارت هي لغة السياسة وهي لغة العلم، وظل هذا الانتصار حليف العرب في أكثر هذه الممالك إلى اليوم، وكذلك الدين فقد ساد هذه الأقطار واعتنقوه، وقل من بقي من سكان هذه البلاد على دينه الأصلي. ومع انتصار هذين العنصرين ــ اللغة والدين ــ فقد تأثر كل منهما أثناء هذه الحروب، فاللغة لم تعد سليقة، وفشا فيها اللحن، حتى احتاجت إلى قوانين تضبطها. قال أبو عبيدة : «مر عبد الله بن الأهتم بقوم من الموالي وهم يتذاكرون النحو فقال : لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده. قال أبو عبيدة : «ليته سمع لَحن صفوان وخاقان ومؤمل ابن خاقان ! وكذلك غلبت على اللغة كلمات

Scanned with CamScanner

أعجمية، وتراكيب أعجمية، وخيال أعجمي، ومعان أعجمية. وقل مثل ذلك في الدين، فهو وإن انتصر فقد تأثر، فتفرق المسلمون فرقا ووضعت المذاهب المختلفة، وشرح القرآن نفسه بما ورد في الكتب الأخرى من أقاصيص بدء الخليقة وما إلى ذلك، وظلت هذه الفرق تتجادل بالقول أحيانا وبالسيف أحيانا»(41).

يضاف إلى ما ذكره أحمد أمين كون المسلمين كانوا بسبب هذه الفتوحات قد خرجوا من صحرائهم وبيئتهم الشحيحة إلى بيئات تنعم بحضارة وعمران. إلى جانب ما تكدس في أيديهم من أموال ومكاسب الفتوحات فتبدلت حياتهم من شظف إلى نعيم، ومن ضيق إلى سعة، ومن تقشف إلى رفاه ورخاء. فدب إلى حياتهم اللهو والمتاع، وصحب ذلك تجاوز الحدود الشرعية، في الحياة الشخصية، فوضعت المشكلات الأخلاقية التي تستدعي إثارة مشكلة علاقة الإيمان بالعمل أو العمل بالإيمان.

لم يكن اللقاء الثقافي والحضاري الناجم عن الفتوحات الاسلامية مجرد حادث عابر، فلقد أوضح الباحث الكبير أحمد أمين مدى تفاعل الفاتحين العرب المسلمين بعوامل التأثير في البلاد المفتوحة. ولابد من توضيح العوامل الثقافية والعقائدية منها بصفة خاصة، لأنها كانت مؤثرة أبلغ تأثير في صياغة الأفكار المذهبية في الفكر الاسلامي، سواء لدى المتكلمين أو الشيعة أو الصوفية.

لقد انتقل الحكم الاسلامي إلى بيئات شرقية وغربية واسعة، ذات ثقافات متميزة وعقائد مختلفة ولغات متعددة. فأما الثقافات فأهمها الثقافة الفارسية والثقافة الهندية والثقافة المصرية، وأما الديانات فأهمها الديانة

---

(41) المرجع السابق 96/95.

Scanned with CamScanner

النصرانية والديانة اليهودية والديانة المجوسية والديانة الهندوكية. وأما اللغات فأهمها اللغة الفارسية واللغة السريانية واللغة اليونانية واللغة السنسكريتية.

أما تأثير الثقافة الفارسية في الفكر العربي فيرجع إلى العوامل التالية : 1) هيمنة الفرس على مناصب السلطة والقرار في كنف الدولة العباسية منذ نشأتها، 2) تعاطي الفرس المستعربين للكتابة العربية وإتقان العلوم والتدوين لها ونقل نزعاتهم الفكرية إلى الأدب والثقافة العربيين، 3) انتقال عاصمة الخلافة الاسلامية إلى بغداد بعد غروب شمس الخلافة الأموية من دمشق والشام. فأصبحت بغداد ملتقى الحضارات الشرقية والبوتقة التي تنصهر فيها نزعات تلك الثقافات 4) حركة الترجمة والنقل عن الأدب الفارسي ونظم الحكم الفارسية والحكمة الفارسية القديمة، واشتهر من كبار التراجمة عبد الله بن المقفع وآل نوبخت والحسن بن سهل والبلاذري وسواهم.

وأما تأثير الثقافة الهندية فكان دون الثقافة الفارسية، ولكنه كان أكثر حضورا في بعض الظواهر الأخرى. ولاسيما الجانب الروحي والفلسفي. ذلك أن الثقافة الهندية كانت ثقافة دينية روحية، يطبعها نزوع الزهد والتسامي، والتقرب إلى حقيقة الكون العليا، وكانت هذه الثقافة تقوم على معتقدات راسخة كعقيدة التناسخ والحلول التي تعني أن في الكون روحا عامة سارية فيه، وفي ظواهره المادية. وكما قال أبو الريحان البيروني في فلسفتهم. فإنهم كانوا يعتقدون أن الموجود شيء واحد، وأن العلة الأولى تترايا فيه بصور مختلفة. وتحل قوتها في أبعاضه بأحوال متباينة، توجب التغاير مع الاتحاد. وكان فيهم من يقول : «إن المنصرف بكليته إلى العلة الأولى متشبها بها على غاية إمكانه يتحد بها عند ترك الوسائط وخلع العلائق والعوائق. وهذه آراء يذهب إليها الصوفية.

Scanned with CamScanner

ولم يقتصر تأثير الثقافة الهندية في بعض تيارات الفكر العرفاني لدى الصوفية المسلمين بل كان هناك مظهر آخر للتأثير يتجلى في العلوم الرياضية والفلكية.

وأما تأثير الثقافة اليونانية في الفكر العربي الاسلامي فقد تم مباشرة بعد حركة الترجمة والنقل التي تمت برعاية الخلفاء العباسيين، لاسيما الخليفة المامون. فاطلع المسلمون على آثار الفكر اليوناني في الطب والجغرافيا والفلسفة والمنطق. وكانت أهم مظاهر تأثير الثقافة اليونانية في الفكر الإسلامي منطق اليونان، فأصبح معيارا يتحكم في كل العلوم الاسلامية لدى طائفة واسعة من العلماء المسلمين. فأثر في توجيه أصول الفقه، وفي النحو وفي علم الكلام، وقد كان لتأثير الفلسفة اليونانية نفسها مظهر التأثير الأرِسطي لدى فلاسفة المسلمين، والتأثير الأفلاطوني لدى المتصوفة. وكان من نتائج هذا التأثير تلك الحركة الفكرية الواسعة التي عرفت بالتوفيق بين الدين والفلسفة، وما أحدثته من خلافات وجدال بين مبطل للفلسفة، ومؤيد لها.

أما عن تأثير الفكر الديني (اليهودي والمسيحي) فليس المقصود منه القول بدخول عناصر فكرية يهودية أو مسيحية في الفكر الاسلامي، وإنما المقصود منه أن المفكرين اليهود والمسيحيين أثاروا مسائل كلامية ودينية في المجتمع الاسلامي من اختلاطهم بالمسلمين. ودفعوا هؤلاء إلى التفكير في مسائل مماثلة كانت مطروحة في مجال التفكير الديني لديهم. وهكذا يبدو للباحث في نشأة علم الكلام أنه كان هناك جدل وحوار بين المسلمين وغيرهم هو الذي حثهم على التفكير في مسائل معروفة، وهذا ما يجوز اعتباره عاملا مؤثرا في توجيه التفكير لدى المسلمين نحو قضايا كلامية معروفة، وخاصة خلال القرن الثاني الهجري.

فقد بدا للكثيرين يومئذ أن المسائل المبدئية في الديانات الكبرى على

Scanned with CamScanner

حد سواء من حيث الصياغة العقلية التي تفرغ فيها تلك المسائل، كالقول بحرية الإرادة أو بالجبر. وكالقول بالتنزيه المطلق أو بالتشبيه والتجسيم وكالقول بنفي الصفات عن الذات أو إثباتها مما نرى أصداءه في الفكر الاعتزالي بقوة.

ويعتقد زهدي جار الله أنه كان لليهود بعض الأثر في ظهور المعتزلة، مستندا في ذلك إلى نص لابن الأثير يروي فيه أن أول من نشر القول بخلق القرآن هو لبيد بن الأعصم الذي كان يقول بخلق التوراة. وأن ابن أخته طالوت ردد هذه المقالة، وصنف في موضوع خلق القرآن فكان أول من فعل ذلك في الاسلام(42).

بينما يذهب ابن قتيبة إلى أن أول من قال بخلق القرآن هو المغيرة بن سعيد العِجلي (ــ 119) وهو من أتباع ابن سبأ اليهودي.

أما تأثير راهب كبير كيحيى الدمشقي في تطوير الفكر الكلامي عند المسلمين فأمر لايكاد يحتاج إلا إلى وقفة قصيرة على حياة الرجل وكتاباته. ولهذا يسوق زهدي حسن جار الله أمثلة متعددة تؤكد ما يذهب إليه من وجود بصمات تفكير يحيى الدمشقي على الفكر الكلامي الاسلامي كقوله، بأن الله تعالى لايصدر عنه غير الخير المحض. ولا يفعل غير الأصلح، وكقوله بنفي الصفات، وحرية الإرادة. ثم يعلق زهدي جار الله على ذلك بقوله : «ولقد أشرنا من قبل إلى أن الداخلين في الاسلام من الأمم المفتوحة في بلاد العراق وفارس أو من بلاد الشام ومصر، أو بلاد الهند وما وراءها كانوا يدخلون في الاسلام لدواع مختلفة، وأنهم لجميع تلك الدواعي والأسباب ظلوا على قدر كبير من اعتقاداتهم الدينية السابقة، لأنهم لم يستطيعوا التخلص من تأثيرها الوجداني

(42) انظر (المعتزلة) لزهدي جار الله ص 23/22 ط/ الأهلية للنشر والتوزيع بيروت 1974.

Scanned with CamScanner

والفكري بين عشية وضحاها. ومنهم من مزج هذه المعتقدات بالعقيدة الاسلامية، وجعل بعض تلك المعتقدات رموزا ناطقة بالعقيدة الجديدة. ومنهم من أخذ يثير المسائل الإشكالية والميتافيزيقية في نطاق الحوار الفكري مع الاسلام نفسه، باعتباره يثير بنفس الحدة والعمق تلك الاشكاليات. وهذا ما كان يثيره اليهود والنصارى باعتبارهم أصحاب دين كتابي أقر الاسلام نفسه جدالهم بالتي هي أحسن ﴿ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾[43].

ولم يمض صدر القرن الأول، بذهاب دولة الخلفاء الراشدين وقيام الدولة الأموية حتى قويت صلات المسلمين بالروم وبالفرس وبالمصريين أي بالأمم التي كانت لها عقائدها ودياناتها ومذاهبها. وكانت على حظ كبير أيضا من الثقافة الدينية والفلسفية، فأخذت هذه الصلات تمتد إلى إثارة المسائل اللاهوتية والميتافيزيقية التي يحتمل النص القرآني إثارتها.

5

لقد نتج عن هذا اللقاء التاريخي والحضاري تأثر عميق بالإسلام من ناحية. وذلك بالنسبة للشعوب المعتنقة للاسلام، وتأثير عميق في المسلمين العرب من ناحية ثانية، وترتب على ذلك كله تعميق الاختلاف بين المنهجين النقلي والعقلي، أو بين المنظورين الأساسيين، وذلك حين أصبح النص القرآني، نفسه موضع تجاذب بين المنهجين، أحدهما ينظر إلى ظاهره ومنطوقه، والآخر ينظر إلى باطنه ومفهومه.

ونشأت الحركة العلمية الأولى في تاريخ الاسلام حول القرآن من ناحية، وحول السنة النبوية من ناحية أخرى، واضطر العلماء خلال

(43) سورة العنكبوت. الآية 46.